الفصل الثاني

الحياة الإجتماعية

obeikandl.com

obeikandl.com

لعلّ الوصف الذى يقارب الصدق ، وينطبق على هذا العصر هو « مجاوزة الحدّ » فى كل أمر من الأمور ؛ فلا نكاد نجد فى التاريخ عصرا لا يعرف القصد أو الاعتدال فى أىّ شأن من شئون الحياة كهذا العصر ، فقد تجاوز الحد فى الفوارق بين الطبقات ، وفى البناء والعمارة ، وفى الزهد والمجون ، وفى تطبيق الشريعة والقوانين ، وفى نوازل الأيام وكوارث الطبيعة .

اختلف العلماء فى تصنيف طبقات المجتمع فى العصر المملوكى (١) ، فمنهم من قسّمه إلى طبقتين ، أو ثلاث ، ومنهم من جعلها سبعا ، وهى : أهل الدولة من المماليك ، وأهل اليسار من التجار ، ومتوسّطو الحال من السوقة والباعة ، وأهل الفلح ، والفقهاء وطلاب العلم ، وأرباب الصنائع وأصحاب المهن ، وذوو الحاجة والمسكنة

وربّما دلّ هذا التقسيم على الوظائف الاجتماعية فى الدولة أكثر من دلالته على ما يميّز الطبقات بعضها من بعض فى توزيع الثروة القومية ، وفى مستوى المعيشة ، وفى المستوى الثقافى أيضا .

فمن المماليك الحكّام من كان يُصَادَر ، وتؤخذ ثروته ، ويعيش فى بؤس شديد ، وفقر لا حدود له ، إلى الحد الذى يحسد فيه الفلاح الفقير ؛ فيتمنى أنْ يكونه ، يسوق حمارا (٢) ، ويجد فى عيشته القاسية الأمن ، والغذاء .

ومن المماليك الأمراء من تفَرَّغ للاشتغال وطلب العلم ، وتصدّر للإقراء والإفادة ، والصفدى واحد منهم .

ومن الفقهاء وطلاّب العلم من جمع ثروة عظيمة ، وكان له مماليك وإقطاعات (٣) ، ومنهم من عاش عيشة متوسّطى الحال ومنهم من يُعَدُّ من المساكين وذوى الحاجة .

---

(١) انظر : ابن نباتة المصرى ٤٢ .
(٢) الوافى ٩ / ٤٦٠ .
(٣) انظر ترجمة الفخر الرازى فى الأعلام ٦ / ٣١٣ ، وترجمة ابن الأدمى فى تاريخ ابن قاضى شهبة ١ / ٣ / ٤٩٥ .

obeikandi.com

وسأتحدث عن طبقات المجتمع من خلال مجالات خاصة - كالملكية الزراعية ، والثروة ، ومستوى المعيشة - مما هو أبين فى إبراز الفروق بين الطبقات .

فى الملكيّة الزراعيّة كانت الأرض كلّها ملكا للسلطان وحده ، يأخذ منها ما يستحسنه ، ويوزّع الباقى على الأمراء ، والأجناد كلٌّ بحسب رتبته ؛ فللسلطان الربع ، ولنائبه الثمن ، والباقى لأعوان السلطان ومساعديه [١] ، ولم يُسْمَح للمواطنين بامتلاك الأرض إلاّ بعد الوباء الأسود فى سنة ٧٤٩ هـ الذى أهلك جُلّ الفلاحين ، ولم تجد الأرض من يزرعها ، وكان الأمير يمتلك الأرض ، ومَنْ عليها من فلاحين ، وما عليها من حيوان وآلات ومساكن [٢] ، وإذا مات الأمير ، أو قُتِل ، أو صُودر رجعت ملكيّة الأرض للسلطان ؛ فيعيد توزيعها من جديد وَفْق هواه ، وإذا كلّف السلطان أحد الأمراء قَتْلَ أمير آخر ضم القاتل أملاك القتيل إلى أملاك قاتله ، وربّما ورثه فى جميع أمواله ، كما يرث نساءه وجواريه [٣] .

وفى مجال الثروة تبرز ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : طبقة المماليك ، والحديث عن ثرواتهم شبيه بالأساطير ، وأقاصيص الخرافة [٤] ، فقد زادت محاصيل الأراضى الزراعية ، وازدهرت الصناعة ، واستأثر المماليك بالقسم الأكبر من التجارة العالميّة بين الشرق والغرب [٥] ، وفرضت الضرائب الكثيرة على التُّجّار وأرباب المهن والصنائع والسقّائين ، كما فُرِضَتْ الضرائب فى مناسبات خاصّة كالأفراح ، وعمل شعار المُلْك وأُبَّهَة السلطان [٦] .

---

(١) انظر : الوافى بالوفيات ٩ / ٤٧٨ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ٨١ .

(٢) انظر : المماليك ١٥٩ - ٢٠٥ .

(٣) الوافى بالوفيات ١٠ / ١٤٢ .

(٤) انظر الحديث عن ثروة شيخو فى البداية والنهاية ١٤ / ٢٥٨ ، و تَنْكِز فى البداية والنهاية ١٠ / ٤٢٠ ، وثروة الأمير سَلاَّر فى النجوم الزاهرة ٩ / ١٧ .

(٥) انظر : العصر المماليكى ٢٨٥ - ٣٠٤ .

(٦) النجوم الزاهرة ٩ / ٤٤ . والأُبَّهَة - بالضم وتشديد الباء - : العظمة ، والبهاء . انظر : اللسان « أبه » ١٣ / ٤٦٦ ، والألفاظ الفارسيّة ٧ .

ولم تكن مصادر هذه الثروة مشروعة ، فى كل الأحوال ؛ فقد يلجأ بعض الأمراء إلى السرقة ، والاغتصاب [١] ، واستغلال المنصب [٢] ، ويجب ألاَّ ننسى أنَّ احتفاظ الأمراء بكل هذه الكنوز تحت أيديهم ، وفى قصورهم شكّل خطرًا كبيرًا على موازين الدولة الاقتصاديّة ؛ فتتورّط فى عجز مالى ، يدفعها إلى أنْ تتخذ تدابير قاسية لتوفير حاجة الدولة من المصاريف [٣] ، وقد تضطرّ إلى غش العملة ؛ فتخلط الدينار بالفضّة [٤] .

وقد أفاض التاج السبكى [٥] فى تصوير ما عُرِف عن أمراء المماليك من الإسراف ، وحُبِّ الذَّهب ، واعتبره من قبائحهم ، فهم يُذَهِّبُون الأطرزة العريضة [٦] ، والمناطق ، وغيرها من أنواع الزينة ، ويزخرفون سقوف قصورهم وحيطانها بالذهب ، « وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب ، فى هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة ، لا يحصيها إلاّ الله تعالى ؛ فإنَّه لا بد فى كل منطقة ، أو طراز ، ونحوه من ذهاب شىء - وإنْ قلّ جدًّا - تأكله النار ، وهو فى الأبنية أكثر ، فإذا ضممت ذلك القليل إلى قليل آخر ، على اختلاف البقاع ، والأزمنة لم يُحْصِ ما ضاع من القناطير المقنطرة من الذهب إلاَّ اللهُ تعالى ، ثمَّ القَدْر الذى يسلم، ولا يضيع ، يصير محبوسًا عندهم أطرزة ، ومناطق ، وسلاسل

(١) انظر : مطالعات فى الشعر المملوكى ٤٥ .

(٢) بدائع الزهور ١ / ١ / ٥٤٦ .

(٣) انظر : السلوك ٢ / ٣ / ٩٢٠ .

(٤) انظر : الوافى بالوفيات ٨ / ٩٠ .

(٥) أبو نصر ، عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، تاج الدين ، السبكى (٧٢٧ / ٧٧١ هـ) من قضاة الشافعية ، مؤرخ ، أديب ، أصولى ، فقيه ، مولده بمصر ، ووفاته بدمشق ، انظر : ألحان السواجع ٥٠٥/١ ، والوافى بالوفيات ١٩ / ٣١٥ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٩١ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٣١٨ ، والمنهل الصافى ٧ / ٣٨٥ ، والدليل الشافى ١ / ٤٣٣ ، والأعلام ٤ /١٨٤ ، ومعجم المؤلفين ٦/ ٢٢٥.

(٦) الطراز ، جمعه طُرُزٌ ، وطرازات ، وأطرزة : الثوب الموشّى ، وعلم يحتوى على شعار السلطان أو الأمير ، وكان لتلك الكتابة والنقوش دار خاصّة ، تسمّى « دار الطراز » . انظر : المعرّب ٢٢٣ ، والألفاظ الفارسيّة المعربة ١١٢ ، رسوم دار الخلافة ٢٦ ، المجموع اللفيف ٢٣ ، Dozy : Supp. dict. Arab. V. II P. 35.

وكنابيش[١] ، وسروجا ، وغير ذلك من المحرّمات المختلفة الأنواع ، ولو كان مضروبا سكّة ، يتداوله المسلمون ؛ لانتفعوا به ، ورَخُصَتْ البضائع ، وكَثُرَتْ الأموال » [٢] .

الطبقة الثانية : تضم موظفى الدولة ، والتجار ، وأصحاب المهن والعلماء ، وكانت الأموال التى يحصلون عليها أجْرًا على أعمالهم فى وظائفهم ، أو كَسْبًا من تجارتهم وصنائعهم كانت توفّر لهم - عادة - حياة طيّبة ، وعيشة رغْدة [٣] ، وبالرغم من ذلك ؛ فإنَّنا نجد بعض الموظفين تغريهم الدنيا ، ويدفعهم الطمع فى الكسب الحرام إلى الانحراف عن سواء السبيل ، فمنهم من يزوّر فى الأوراق الرسمية[٤] ، أو يرتشى [٥] ، ومنهم من كان يغشّ النقود ؛ فيخلطها بالرصاص ، أو النحاس [٦] .

ومتى انكشف أمر هؤلاء المنحرفين كانت الدولة تُنْزِلُ بهم أشدّ أنواع العقاب ، وتصادر أموالهم ، وتلزمهم بردّ المبالغ التى اختلسوها ، وإذا عجزوا عن تدبير المطلوب منهم فقد يضطرون إلى بيع ممتلكاتهم ، وبناتهم ؛ لسداد تلك الديون [٧] .

الطبقة الثالثة : وتضم عامة الناس : من الفلاحين ، والمساكين ، والعاطلين والعاجزين عن الكسب يجمعهم كلهم البؤس والشقاء ، فقد كان يعيش فى القاهرة وحدها حوالى مائة ألف بلا مأوى إلاَّ الطرقات ، وبلا ملبس إلاَّ الأسمال البالية [٨] .

---

(١) الكنبوش ، والجمع كنابش ، وكنابيش ، وتطلق على :

أ - البرذعة تكون تحت السرج ، وكان يكتب عليها ألقاب السلطان ، أو الأمير بالزركش ، والذهب ، والحرير .

ب - خمار أو « برقع » تغطّى به النساء وجوهها ؛ لحمايتها من برودة الهواء .

انظر : صبح الأعشى ٢ / ١٣٣ - ١٣٥ ، و١٢/٤ - ٥٤ ، وانظر : Dozy : Supp. dict. Arab. V. II P. 499.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم ، للسبكى ٥٠ .

(٣) انظر : صبح الأعشى ٤ / ٥١ .

(٤) انظر : أعيان العصر ٣ / ٧٢٠ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٦٧ .

(٥) انظر : السلوك ٣ / ١ / ٨ .

(٦) نفسه ٢ / ٣ / ٧٧١ .

(٧) البداية والنهاية ١٤ / ٢٦٩ .

(٨) انظر : العصر المماليكى ٣٢٤ .

الأسمال جمع سَمَل : وهو الثوب الخَلَق ، انظر : أساس البلاغة ٢٢٠ .

كان نصيب الفلاحين الإهمال ، والاحتقار ، وصار لفظ « فلاَّح » رمزًا على التخلف والجمود ، والسَّب ، يستعمله الناس فى الهجاء ، وتحمّل الفلاّحون من الظلم ، والمغارم ما لا سبيل إلى وصفه ؛ فالحكّام يأخذون منهم الضرائب مضاعفة ، ولم يسلموا من أذى العربان الذين كانوا يغيرون على القرى ، فينهبون المحاصيل ، والمواشي ، ويفرضون عليهم « إتاوات » باهظة [١] ، ويكون الخطب أشد ، والنازلة أنكى إذا وقع الخُلْف بين الأمراء ، وشهر أحدهم السلاح فى وجه منافسه ؛ لأنَّ الجنود كانوا يعيثون فسادًا فى القرى ، ويأخذون الأقوات ، ويفجرون بالنساء ، وقد يضطر الفلاحون إلى ترك بيوتهم ، ويهيمون على وجوههم فى الطرقات [٢] ، ولو اقتصر الأمر على أوقات النِّزَاع لهان الأمر ولكنهم كانوا يخرجون إلى الصيد كثيرا ، يتريَّضون ، ويرتكبون من الجرائم ما يندى له الجبين ، يقول التاج السبكى : « سمعت أنَّ واحدا منهم خرج مرّة إلى الصيد ، فافتضّ - هو ومماليكه - من بنات البر سبعين بنتا حراما .... وتنوّع فى الفسق بالغلمان ، والخمور ، والبراطيل ، ونحوذلك » [٣] .

ومن المعتاد أَنْ تتولّد الجريمة فى أجواء الجور والعسف ، فيكثر المنحرفون ، والخارجون على القانون الظالم ، وربّما تكوّنت من هؤلاء الثائرين على الأوضاع جماعات تستخدم وسائل مبتكرة فى التهديد ، وابتزاز الأموال ، وتحتال بطرق ماكرة فى النجاة من العقاب [٤] ، ومنهم من يحترف النصب والاحتيال [٥] ، ومنهم من يحترف شهادة الزور [٦] ، وإذا قبضت الشرطة على المشتبه فيهم فإنَّهم يعذِّبونهم عذابا شديدا ، ويضربونهم بالمقارع [٧] ضربًا مبرِّحًا ؛ ليعترفوا ، وقد يموت منهم أفراد من التعذيب [٨] .

---

(١) الإتاوة : الخراج ، والرِّشْوة . انظر : القاموس المحيط « الأتو » ٤ / ٢٩٧ .

(٢) انظر : الوافى بالوفيات ٨ / ٨٩ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٤٤ .

(٣) معيد النعم ٥٢ .

(٤) السلوك ٢ / ٣ / ٦٤٩ .

(٥) نفسه ٢ / ٣ / ٦٤٩ .

(٦) نفسه ٢ / ٣ / ٩١٥ .

(٧) المقارع جمع مِقْرَعة : وهى خشبة تضرب بها البغال والحمير .
انظر : لسان العرب « قرع » ٨ /٢٦٤

(٨) الوافى بالوفيات ١٠ / ١٩١ .

ومن الجدير بالذكر أنْ نعلم ما يحدثه سوء توزيع الثروة من تفاوت كبير بين الطبقات ، فى مستوى المعيشة ؛ فنجد المماليك فى حياتهم الخاصة صورة للبذخ ، والإسراف فيما يأكلون ، ويلبسون ، وكانت قصورهم الفاخرة تزيّن سقوفها بالذهب ، وتنقش بالجواهر ، وتغطى أرضها بالرخام الثمين ، وتؤثث بالفرش الغالية ، وكان هذا الترف ، والتفاخر بالثراء طابع حياتهم فى :

المجالات الدينية ، والدنيوية ، وفى أمور الدولة أيضا وسأضرب أمثلة على ذلك :

فى المجال الدينى : عندما خرج الملك الناصر لأداء فريضة الحج ، فى سنة ٧١٧ هـ ، فى موكب حافل ، صُنِعَتْ له أدوات المطبخ من الذهب ، والفضة ، والنحاس ، ووضعت أحواض مزروعة بالزهور ، والرياحين ، على ظهور الإبل ، تسير مع الركب ، وتقطف زهورها للسلطان ، وتقدّم إليه فى كل صباح [(١)] .

وعندما خرجت زوج الناصر الخوندة الكبرى طَغَاى إلى الحج ، احتفل بها القاضى كريم الدين احتفالا كبيرا « حَمَل لها البَقْل فى محائر طين على ظهور الجمال ، وأخذ لها البقر الحلاّبات تكون معها فى الطريق ؛ ليؤخذ لبنها ، ويجبّن ، ويصنع لها فى الغداء والعشاء الجبن المقلوّ السخن ، وناهيك بمن وصل إلى هذين النوعين : البَقْلُ والجبن ، وهما أحسن ما يذكر » [(٢)] .

عندما حجّ الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فى سنة ٧٧٨ هـ سار معه قطاران من الجمال تحمل الخضر المزروعة ، وأمّا أصناف الطعام والشراب فلا تدخل تحت حصر ، منها « ثلاثون ألف علبة حلاوة ، فى كل علبة خمسة أرطال ، كلّها معمولة من السّكر المكرر المصرى ، وطُيِّبَت بمائة مثقال مسك ، سوى الصندل والعود ؛ هذا للسلطان خاصّة نفسه ، بخلاف ما كان للأمراء ، والخاصَّكِيَّة [(٣)] » .

---

(١) النجوم الزاهرة ٩ / ٥٨ .

(٢) أعيان العصر ٢ / ٦٠٠ ، والوافى بالوفيات ١٩ / ٩٨ .

(٣) الخاصَّكِى : والجمع الخاصّكيّة ، ذكر دوزى أنّها كلمة مركبة من كلمة عربية ، ومقطعين فارسيين ، فهى مركبة من خاص ، وـ ك وهى علامة التصغير الفارسيّة ، وـ ى وهى علامة الإفراد ، وتقوم =

وعندما حجّت خوندا بركة - وهى أمّ الملك الأشرف - فى سنة ٧٦٩ هـ حُمِل لها مثل ما يحمل للسلطان [١] .

وفى المجال الدنيوى : خطب الملك الناصر ابنة الأمير بِكْتَمُر [٢] زوجا لابنه آنوك [٣] ، وجهّز الأمير ابنته جهازا يليق بابن السلطان فأنفق على الفرش والأثاث مليون دينار ، ونُقِل إلى بيت الزوجية محمولا على رءوس ثمانمائة حَمَّال ، وستّة وثلاثين قطارا من البغال وأمّا الجواهر والحلى فكانت فى صناديق ، يحملها تسعة وتسعون بغلا ، ووقف الناصر يستعرض الجهاز فى غضب ، ويبدى ألمه ، ويقول : « هذا يا أمير ما يقابل به آنوك ، والتفت إلى الأمير سيف الدين طُقُزْ تَمُر والأمير سيف الدين أَقْبُغَا وقال : جهّزا بنتيكما ، ولا تتخاسّا مثل الأمير » [٤] .

ومن ذلك : خرج الملك الظاهر برقوق [٥] ، فى سنة ٧٩٦ هـ ، متوجّها إلى

= مقام التنوين فى اللغة العربية ، وهى بهذا التركيب تدلّ على كل من يخص السلطان ؛ فهم الذين يلازمونه فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتكفّلون بجميع الأعمال ؛ فيجهّزون فى المهمات الشريفة ، والمقربون فى المملكة ، ومنهم من كانت له وظيفة ، ومنهم من كان بلا وظيفة . راجع : زبدة كشف الممالك ١١٥ ، وتأصيل ما ورد فى تـــاريخ الجبرتى من الدخيل ، Dozy : Supp. dict. Arab. V.I , P. 346 . النجوم الزاهرة ١١ / ٧٠ .

(١) الدرر الكامنة ١ / ٤٧٤ ، والنجوم الزاهرة ١١ / ٥٤ .

(٢) الأمير سيف الدين بِكْتَمُر الساقى (ت ٧٣٣ هـ) من كبار أمراء الدولة ومن المقربين إلى السلطان ، فلا يكاد يفترق أحدهما عن صاحبه ؛ حتى قيل : هو الدولة . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ١٩٣ ، والدرر الكامنة ١ / ٤٨٦ .

(٣) آنوك بن محمد بن قلاوون (٧٢٣ - ٧٤٠ هـ) لم يكن عند أبيه أعزّ منه فقدّمه على إخوته ، وهم أسنّ منه ، وزوجه وعمره عشر سنوات ، ومات قبل أبيه . انظر : أعيان العصر ١ / ٦٣٠ ، والوافى بالوفيات ٩ / ٤٣١ ، والدرر الكامنة ١ / ٤١٨ .

(٤) انظر : أعيان العصر ١ / ٦٣١ ، والمنهل الصافى ٣ / ١١٠ .

(٥) أبو سعيد ، بَرْقُوق بن أَنُص ، سيف الدين ، العثمانى نسبة إلى عثمان تاجر الرقيق الذى جلبه (٧٣٨ - ٨٠١ هـ) أوّل من ملك مصر من الشراكسة ، انتزع الملك من أمير حاج ، آخر ملوك أسرة قلاوون ، والملقب بالصالح ، وذلك فى سنة ٧٨٤ هـ ، وخُلِع فى سنة ٧٩١ هـ ، ثمّ أُعيد إلى الملك بعد سنة واحدة ، وأخباره كثيرة ، وله أعمال إصلاحيّة ، وأنشأ كثيرا من المرافق . انظر : الأعلام ٢ / ٤٨ .

الشام ؛ لقتال تيمورلنك (١) ، فحُمِل له خمسة قناطير من العاج ، والأبنوس ؛ ليصنع له منه الشطرنج الذى يلعب به ، فقد اعتاد السلطان أنْ يلعب بالشطرنج مرّة واحدة ، فقط فإذا فرغ من اللعب ، أخذه منافسه ، وصُنع للسلطان غيره (٢) .

وفى مجال أمور الدولة : تشبّههم بقارون فى زينته ؛ فإذا خرج أحدهم فى موكب ركب جواده ، والجنائب (٣) تقاد بين يديه مسرجة ، غير مركوبة ، للتزيّن ، والافتخار (٤) .

ومنها : كُتُبُ السلطان إلى الملوك ، والأمراء كانت تُكْتَب بالذهب (٥) .

ونتيجةً لهذا الإسراف كان المماليك يعاملون الممولين بكل قسوة ، فكثرت الضرائب ، وأصبحت مصادرة الأموال تلاحق التجار ، والحِرَفِيِّين ، والفلاحين .

ولم تكن الضرائب والمصادرة وحدهما هما سبب الشقاء الذى أرهق عامة الناس ، فى عصر المماليك ؛ بل يضاف إلى ذلك المجاعات المتعدّدة (٦) ، وغلاء الأسعار ، ويمكن الإشارة إلى أسباب هذه المجاعات فيما يأتى :

* منها الجفاف ، ونقص مياه النيل فى مصر ، أو غزارة الأمطار وغرق الأرض بالفيضانات والسيول فى الشام (٧) .

* ومنها الجراد ، والآفات الزراعية الأخرى (٨) ، من ذلك ما حدث فى سنة ٧٢٨ هـ حين ظهرت فى مزارع أرض مصر آفة من الدودة ، بعد حرٍّ شديد ، أتت

---

(١) أمير تيمور (٧٣٦ - ٨٠٧ هـ) من أحفاد جنكيزخان ، كان وزيرا ، وحاكما فى كِش ، وزحف فى سنة ٧٨٢ هـ ، على إيران ، وواصل فتوحاته غربا ، فانتصر على الأتراك العثمانيين، فى أنقرة ، وفتح حلب ، ودمشق ، وبسط سلطانه على الشام . انظر : طبقات سلاطين الإسلام ٢٤٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢ / ٥٦ .

(٣) الجنائب : جمع جنيبة ، ما يقاد خلف السلطان من خيل مسوّمة .
انظر : Dozy : Supp. dict. Arab. V.I , P. 221.

(٤) معيد النعم ٥٢ .

(٥) انظر : صرف العين ب / ٣٨ ، وصبح الأعشى ٢ / ٤٧٧ .

(٦) راجع : السلوك ٢ / ٣ / ٦٢٢ ، و ٦٧٣ ، و٧٥٣ ، والتوفيقات الإلهامية ١ / ٧٢٧ - ٨٠٠ .

(٧) دول الإسلام ٢ / ٢٣٣ .

(٨) السلوك ٢ / ١ / ٣٠٠ .

alukah.net watermark

على أكثر الزروع ، وفى سنة ٧٤٣ هـ ظهر جراد عظيم ، سدَّ الأفق ، وأكل جميع الأشجار ، حتى أخشابها ، وأفسد الثمار كلّها .

* ومنها العواصف والرياح الشديدة التى كانت تحجب الرُّؤْية ؛ حتى لا يرى الإنسان رفيقه ، وتقتلع الأشجار ، وتهدّم الدور ، وتُغْرِق المراكب (١) .

* ومنها الحرائق الكثيرة التى كان يؤجِّج نارها بعض النصارى فى أموال المسلمين ، من ذلك حريق القاهرة الكبير ، فى سنة ٧٢٥ هـ (٢) ، وفيه يقول ابن الوردى (٣) :

عَدِمْتُكُمُو نَصَارَى مِصْرَ كُفُّوا فَكَمْ آذَيْتُمُونَا مِنْ طَرِيقِ
حَرِيقُ النَّارِ قَدْ عَجَّلْتُمُوهُ فَأَجَّلْنَا لَكُمْ نَارَ الحَرِيقِ

* ومنها الأوبئة وانتشار الأمراض ، وبخاصة الطاعون المعروف بالوباء الأسود (٤) الذى بدأ عام ٧٤٩ هـ واستمر يطوف حول العالم خمس عشرة سنة ، لم ينج منه طير فى السماء ، ولا حوت فى أعماق البحار ، ولا حيوان على وجه الأرض ، وهلك فيه أكثر الأيدى المنتجة فى مصر والشام ، وقد حوّل كتاب الديوان سنة الطاعون إلى سنة ٧٥١ هـ ، وألغوا سنة ٧٥٠ هـ ، وكان يُقَال : مات فى تلك السّنة كلُّ شىء حتّى السنة نفسها (٥) ، إنَّه الوباء الذى لم يحتج فيه الناس إلى دواء أو طبيب ، لسرعة فتك المرض بالناس ، وإذا ورث إنسان شيئا انتقل فى يوم واحد عنه إلى رابع ، وخامس ، ولا تجد الأمتعة من يأخذها ، وخلت الدروب والدور من الناس ، وتتناقل كتب التاريخ ما كتبه الصفدى عن تلك المأساة ، فقد قال إحدى عشرة مقطوعة

---

(١) السلوك ٢ / ١ / ٣٠٠ .

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٣٨٨ ، وراجع النجوم الزاهرة ٩ / ٦٥ .

(٣) أبو حفص ، عمر بن عمر بن مُظَفَّر بن عمر ، ابن الوردى ، زين الدين ، المعرى ، الكندى (٦٩١ - ٧٤٩ هـ) شاعر ، أديب ، مؤرخ ، فقيه ، قاض له مؤلفات كثيرة ، وديوان شعر . انظر : ألحان السواجع ٢ / ٤٣ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٣٠ ، ودرة الأسلاك ٣٦٦ ، وذيول العبر ٤ / ١٥٠ ، والسلوك ١ / ٢ / ٧٩٥ ، وتاريخ الأدب العربى ، بروكلمان ق ٦ / ٥٨٧ ، وأعلام النبلاء ٥ / ٧ ، والأعلام ٥ / ٦٧ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٣ .

(٤) السلوك ٢ / ٣ / ٧٨١ ، والقاموس الإسلامى ٤ / ٤٣٥ .

(٥) صبح الأعشى ١٣ / ٦٢ .

يرثى فيها أصحابه ، من ذلك قوله عن الطاعون [١] : « لمّا دخل إلى صفد أجنى عليها الذى أجنى ، فما ترك بها أحدًا من الأهل والمعارف حتى اجتحفه سيله الجارف ، فكم من صاحب جاءنا عنه ناعيه ، ودعاه إلى البلى منه داعيه ، فقال المملوك :

لِمَ افْتَرَسْتَ صِحَابِى ... يَا عَامَ تِسْعَ ارْبَعِينَا ؟
مَا كُنْتَ وَاللهِ تِسْعًا ... بَلْ كُنْتَ سَبْعًا يَقِينًا »

* **ومنها الزلازل** التى هدَّمت البيوت والمساكن ، وحطّمت القلاع والحصون ، وأزهقت النفوس والأبدان [٢] .

* ومن العوامل التى تركت آثارها السيّئة فى الحياة الاقتصاديّة العامة الفتن الداخليّة والثورات الشعبيّة من ذلك :

ثورة العامة ، فى الإسكندرية بسبب مشاجرة بين مسلم ، وذِمّى ؛ فأحرق الثائرون باب الوالى ، فغضب السلطان وأمر بإعمال السيف فى رقاب الناس ، وأخذ من التجار أموالا عظيمة ، وقتل كثيرا من الفقهاء ، والمدرسين ، والصالحين ؛ لأنّهم خرجوا وقت الفتنة ، يستغيثون ؛ وسبب غضب السلطان ظنة أنَّ الباب الذى أُحرق هو باب السجن الذى يُحبَس فيه أمراء المماليك [٣] .

ثورات الأعراب ، وهى أخطر الفتن الداخليّة ، فقد كان الأعراب « ملوك البر ، وأمراء الشام ، والعراق ، والحجاز » [٤] واشتدّ فسادهم فى البلاد ، وكثر قطعهم للطرقات ، واستخفافهم بالولاة ولا تمتدّ يد السلطان إلى من أجاره الأعراب [٥] ؛ لذلك حاول المماليك السيطرة عليهم ، بالتقرّب إليهم وصلتهم ، تارة ، أو بحربهم وقتالهم تارة أخرى .

---

(١) منشآت الصفدى (مخطوطة التيمورية رقم ٤٢٦ / أدب) ٤٣ .
(٢) الوافى بالوفيات ٤ / ٣٦٤ ، والسلوك ٢ / ٣ / ٦٥٢ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٠٢ .
(٣) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٤٠٢ .
(٤) مسالك الأبصار « قبائل العرب » ، لابن فضل الله العمرى ١١٢ .
(٥) السلوك ١ / ٣ / ٩٢٠ ، و٢ / ٣ / ٦٥٦ .

والغريب أنَّ أفرادًا من علماء المسلمين كانوا - فى بعض الأحيان - مصدرًا من مصادر الشقاء والتعاسة لكثير من عامّة الناس لسببين :

الأول : التَّشَدُّد الممقوت فى إقامة الحدود ، وتطبيق أحكام الشريعة بقسوة ، إذا كان مرتكب الجريمة من عامة الناس [١] ، من ذلك أنّ فتاة بكرا من أهل حلب ، كَرِهَت زوجها ، فَلُقِّنَتْ كلمة الكفر ؛ لينفسخ نكاحها قبل الدخول بها ، فقالتها ، وهى لا تعلم معناها ، فأحضرها البدرى بدار العدل ، بحلب ، وأمر فقُطِعَتْ أُذُنَاها ، وشعْرُها ، وعُلّق ذلك فى عنقها ، وشُقَّ أنفها ، وطيف بها على دابّة تشهيرًا ، وعبرة ، وكانت من أجمل الفتيات وشقّ هذا الفعل على الناس ، وعملوا لها عزاء ، شاركت فيه النساء ، واليهود ، والنصارى ، ورثاها الشعراء .

والثانى : تسهيل أمر الشرع ، والترخيص لبعض الأمراء بما لم يُرَخِّصُوا فيه لعموم الخلق ، فيقولون « عن مجاوزة الحد فى التعزيرات : جائز عند مالك ، وعن بيع الوقف إذا خُرّب ، وتعطّلت منفعته ، ولم يكن له ما يُعَمَّر به : حلال عند أحمد ابن حنبل ، وهكذا » [٢] .

وتحدّثنا كتب التاريخ عن كثير من أنواع البغْى والظلم ليس لها ما يبرّرُها ، وليس لها من سبب إلاّ الطيش والحماقة ؛ فهذا أمير من أمراء المماليك طبع الله على قلبه ، وساءت عقيدته ، فأقدم على اقتراف الفواحش فى رمضان ، ثمّ جهَّز كتيبة لتصادر أموال أهل حلب [٣] .

هذه الحياة القلقة المضطربة بما فيها من تناقضات ومفارقات وبما يشيع فيها من مآس وآلام قد تركت آثارًا واضحة فى سلوك الناس وأخلاقهم وعاداتهم :

فمنهم من مال إلى العاجلة ؛ فجعل إلهه هواه ، يغتنم اللذَّات ، ويتّبع الشهوات .

ومنهم من ملأ اليأس قلبه ؛ فزهد فى الدنيا وزخرفها ، وانصرف إلى الآخرة ، يعمل لها هربا من الواقع .

---

(١) انظر : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ١٤٦ .

(٢) معيد النعم ١٠٢ .

(٣) المختصر ٤ / ١٣٨ .

وقليل منهم من استطاع أنْ يحيا حياة متّزنة بين التصوف والمجون ؛ فلا يفرّط فى دينه ، ولا ينعزل عن مجتمعه .

ويحدّثنا المؤرّخون عن المرأة – فى مجتمع المماليك والطبقة العليا فى الدولة – بأنّها كانت تتمتّع بقسط وفير من الحرّية والكرامة ، وتؤدّى دورا بارزا فى الحياة السياسيّة ؛ فترفع ، وتخفض ، بل ذهب بعضهم إلى أنَّ أوّل من ملك مصر من سلاطين المماليك كانت امرأة ، يعنون بها شجر الدّر [١] .

وفى البيئات المتوسّطة كانت المرأة تخرج إلى الأسواق ، وتتردَّد على الحمّامات ، وتطلب العلم فى المساجد ، وتشارك فى الحياة العامة ، وتتمتع بقدر كاف من الاحترام [٢] ، ولعلَّ العصر المملوكى أكثر عصور التاريخ الإسلامى اشتمالا على عدد كبير من المحدّثات ، والعالمات فى الفقه اللاتى شاركن مشاركة فاعلة فى نشر العلم الدينى ، ولا نكاد نجد عالما من العلماء إلاّ وله إجازاة من بعض العالمات ، أوقراءة على بعضهن ، ويذكر الذهبى أنَّ من تلقى العلم عليهن ، ومن أجزن له ، أو كنّ فى عصره ممن تشدّ الرحال إليهن ثلاث ومائة من النساء [٣] .

أمّا وضع المرأة فى البيئات الشعبية فإنّ كتب التاريخ تضنّ علينا بأخبارها ، وربّما كانت إلى الظلم والاضطهاد أقرب قياسا على وضع الرجل فى مثل هذا المجتمع الطبقى [٤] ، وإنْ كانت الأدلة قائمة تثبت مشاركتها زوجها فى عمله ، وتحمّلها مشاق الكسب والسعى بجانبه ، فى سبيل العيش ، والحفاظ على الحياة .

* * *

---

(١) عصمة الدين ، جارية السلطان الملك الصالح (ت ٦٥٥ هـ) كانت بارعة الجمال ، ذات رأى ودهاء وعقل ، لمّا ولدت للسلطان ابنه خليلا أعتقها ، وتزوجها ، تولّت ملك مصر بعد وفاة زوجها فى سنة ٦٤٧ هـ . انظر : ذيل مرآة الزمان ١ / ٦١ ، وكنز الدرر ٨ / ١٢ ، والوافى بالوفيات ١٦/١٢٠ ، وحسن المحاضرة ٢ / ٣٩ ، وأعلام النساء ٢ / ٢٩٠ ، والأعلام ٣ / ١٥٨ .

(٢) انظر : مصر والشام ٢٧٠ .

(٣) راجع فهرس الأعلام فى معجم شيوخ الذهبى .

(٤) مطالعات فى العصر المملوكى ٤٩ .